ويقول الحق من بعد ذلك :

﴿ قُلْ أَنَدْعُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَىٰٓ أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ كَٱلَّذِى ٱسْتَهْوَتْهُ ٱلشَّيَـٰطِينُ فِى ٱلْأَرْضِ حَيْرَانَ لَهُۥٓ أَصْحَـٰبٌ يَدْعُونَهُۥٓ إِلَى ٱلْهُدَى ٱئْتِنَا ۗ قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ ۖ وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٧١﴾ ﴾

هذه الآية تبدأ بسؤال عن عبادة الأصنام أو غيرها ، ما الذى صنعته تلك الأصنام أو غيرها لمن عبدها ؟ وماذا صنعت لمن لم يعبدها ؟ . وهذا أول منطق فى بطلان ألوهية غير الله ، فمن عبد الشمس مثلا ماذا أعطته الشمس ؟ ومن كفر بها كيف عاقبته الشمس ؟ . إنها تشرق لمن عبدها ولمن لم يعبدها . والصنم الذى عبدوه ، ماذا صنع لهم ؟ لا شىء . وهذا الصنم لم يُنْزِل عقاباً على مَنْ لم يعبده ، بل إن الذى انتفع هو من لم يعبد الأصنام ؛ لأنه أعمل فكره ليبحث عن خالق لهذا الكون .

وهكذا نجد النفع والضر إنما يأتيان من الإله الحق : « ونرد على أعقابنا بعد إذ هدانا الله » والإنسان دائماً حين يسير فهو يقطع خطوة إلى الأمام فيقصر المسافة أمامه ، أما من يُرَدُّ على عقبه فهو من يرجع هذه الخطوة التى خطاها .

وهذا حديث المؤمنين الذين يرفضون أن يعودوا إلى عبادة غير الله لأنهم آمنوا وساروا فى طريق الهدى ، وليس من المنطق أن يرتدوا على أعقابهم وأن ينقلبوا خاسرين .

« كالذى استهوته الشياطين فى الأرض » كلمة « شيطان » مقصود بها عاصى الجن . والجن جنس مقابل للإنس ، وما دام فى الإنس طائعون وعاصون فكذلك فى الجن طائعون وعاصون .

والحق قال :

﴿ قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا (١) يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَلَنْ نُشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا (٢) ﴾

« سورة الجن »

إذن فمن الجن من هو مؤمن . ومن الجن من هو عاصٍ . والعاصي من الجن يُسمى شيطاناً . وإياك أن تنكر أيها المسلم وجود الشيطان لأنك لا تراه ، لأن الشيطان من المخلوقات التي ذكرها الله من عالم الغيب ، وحجة وجودها هو تصديقك لمن قال عنها ، وهناك فرق منطقي وفلسفي بين وجود الشيء وبين إدراك وجود الشيء . والذي يتعب الناس أنهم يريدون أن يوحدوا ويربطوا بين وجود شيء وإدراكه . وهناك فارق بين أن يوجد أو يدرك ؛ ذلك أن هناك ما يكون موجوداً ولكنه لا يُدرك .

﴿ قُلْ أَنَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَىٰ أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَانَا اللَّهُ ﴾

« من الآية ٧١ سورة الأنعام »

جاء هذا التصور في صورة استفهام . إنّ الحق طلب من رسوله أن يقوله ، فكأن الصورة : أن قوماً هداهم الله إلى الحق فدُعوا إلى أن يعبدوا غير الله ويدعوا مالا ينفع ولا يضر ، فيردوا على أعقابهم ، أي بعد الهداية ، وهذه هي صورة الحيرة والتردد ؛ لأنهم كانوا على هدى ، ثم دُعوا إلى أن يعبدوا من دون الله مالا ينفع ولا يضر . وأراد الحق سبحانه وتعالى أن يعطينا صورة لهذه الحيرة ، ولهذا التردد ، فقال : « كالذي استهوته الشياطين » .

و « استهوته » من مادة « استفعل » وتأتي دائماً للطلب ؛ كقولنا « استفهم » . أي طلب الفهم ، و « استخرج » . أي طلب الإخراج للشيء . « فاستهوته » طلبت هُويّه . أي جعلته يتقبّل ما تريد واستولت عليه دون أن يكون لديه أي دليل أو حجة على صحة ما تدعوه إليه بأن صار عجينة تشكله الشياطين كما تشاء ، وترد مادة « الهاء والواو والياء » لمعانٍ . إن مُدّت ؛ فهي الهواء الذي نتنفسه ، وما به أصل الحياة ، وإن قُصِرَت ؛ فإنها هي الهَوَى وهو ميل النفس إلى شيء ، أو تكون هُوِيًّا أي سقوطاً .

إذن فالمادة تأتى إما للهواء إن كانت ممدودة ، وإن كانت بالقصر فهى من الهوَى أو من الهُوِىّ ؛ كأن تقول : « هَوَى، يَهْوِى ؛ هُوِيًا » أى سقط من علوٍّ إلى أسفل ، وهَوِىَ ، يَهْوَى، هَوًى . أى أحبَّ ، وهكذا نعرف أن «استهوته » أى طلبت هويَّه أو هواه أى ميل نفسه إلى اتباع الهوَى ، وحين تستهوى الشياطين الإنسان فهى تريد أن تجتذبه إلى ناحية هواه ، وتوقظ الهوى فى النفس ، وبذلك تدعوه ليَهْوِى . والحق يقول :

﴿ وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ (٣١) ﴾

(سورة الحج)

وحين يخرّ عبد من السماء ، إما أن تتخطفه الطير أو تهوى به الريح فى مكان سحيق ، وحين تأتى إلى الهوَى والهُوِىّ فاعلم أن الهوى يجذبك إلى ما يضرك ، ولذلك لا تسلم منه إلا أن يكون هواك تبعاً لما جاء به الحق ، ولكن إن اتبعت هواك فلا بد أن يؤدى بك إلى الهُوِىّ :

﴿ كَالَّذِي اسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطِينُ فِي الْأَرْضِ حَيْرَانَ ﴾

(من الآية ٧١ سورة الأنعام)

وما هى الحَيْرة ؟ هى التردد بين أمر ومقابله . وعرفنا من قبل أن الحَيْرة في هذه الآية جاءت لمن اهتدى وسار خطوة للمنهج ثم رُدَّ على أعقابه ورجع ، ولكن له أصحاب يدعونه إلى الهدى ، فهو بين شيطان يستهويه ، وأصحاب يدعونه للمنهج ؛ لذلك يكون حيران : بين هاوية ونجاة ، والشيء الذى يهوى لا استقرار له ، وحين نرى - على سبيل المثال - حجراً يهوى للأرض نجده يدور ، ولا اتجاه له . وهذه صورة معبرة ، ويأتى له القول الفصل :

﴿ قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَى ﴾ (من الآية ٧١ سورة الأنعام)

فمن يتبع إذن ؟ إنه يتبع الذين يدعونه إلى منهج الحق سبحانه وتعالى ؛ لأن الهدى

هو المنهج والطريق الموصل للغاية ، والصنعة لا تضع غاية لنفسها ، بل الذى يضع الغاية هو من صنعها ، وسبق أن قلت : إنّ التليفزيون لا يقول لنا غايته ، ولا يعرف كيف يصون نفسه ، بل يضع ذلك مَنْ صنعه ، وكذلك الإنسان عليه أن يأخذ غايته مِمَّن خلقه ، والذى يفسد الدنيا أن الله خلق ، لكن الناس أرادوا أن يضعوا لأنفسهم قانون الصيانة ، لذلك نقول : إن علينا أن نأخذ قانون الصيانة ممن خلقنا ، وهدى الله هو هدى الحق .

وجاءت « الهدى » هنا لتعطينا يقيناً إيمانياً فى إله واحد ، وحين توجد عقيدتنا فى إله واحد ، لا تختلف أهواؤنا أبداً ؛ لأنه هو الذى يضع لنا القانون ، وساعة يضع لنا القانون ويكون كلٌ مِنَّا خاضعا لقانونه ، لا يذل أحد منا لأحد آخر ؛ فأنا وأنت عبيد لإله واحد ، ولا غضاضة عليك ولا غضاضة علىّ . وحين يُريد البشر أن يسير الناس على أفكارهم فإن صاحب الفكر يريد أن يُذِل الآخرين له ويأخذهم على منهجه وعلى مبدئه ، وهو فى الحقيقة ليس أفضل منهم ، ولذلك تجد الهداية الحقة حين نخضع جميعاً لإله واحد ، ويتساند المجتمع ويتعاضد ولا يتعاند ، ويتوجه الهوى إلى محبة منهج الله .

﴿ وَلَوِ ٱتَّبَعَ ٱلْحَقُّ أَهْوَآءَهُمْ لَفَسَدَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ ﴾

« من الآية ٧١ سورة المؤمنون »

ولهذا جاء الدين ؛ لأن الشرع لا يقرر شيئاً ضد الإنسان .

ونذكر جميعاً قصة ملكة سبأ وسيدنا سليمان عليه السلام حينما قالت : (وأسلمت مع سليمان) . ولم تقل :أسلمت لسليمان بل أسلمت مع سليمان لله ، فلا غضاضة أن تكون قد أسلمت فهى ليست تابعة لسليمان ، بل تابعة لرب سليمان ، إذن حين يأتى التشريع من أعلى ، لا غضاضة لأحد فى أن يؤمن ، ولا يظن واحد أنه تبع لآخر بل كلنا عبيد لله . وحين نكون جميعاً عبيداً لواحد نكون جميعاً سادة .

ويتمثل الهدى فى الإيمان بإله واحد ، ونأخذ هذا الإيمان بأدلتنا العقلية . إننا ندخل عليه من باب العقل ، ونسلم أمرنا له ؛ لأنه هو أعلم بما يصلحنا .

﴿ وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾

« من الآية ٧١ سورة الأنعام »

وقوله تعالى :

﴿ وَأَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّقُوهُ ۚ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٧٢﴾ ﴾

هنا تجد الأمر بثلاثة أشياء : نُسْلِمُ لرب العالمين ، ونقيم الصلاة ، ونتقيه سبحانه ، لماذا ؟ ؛ لأن كل الأعمال الشرعية التى تصدر من الجوارح لابد أن تكون من ينابيع عقدية فى القلب .

وكيف نسلم لرب العالمين ؟ . أى نفعل ما يريد وننتهى عما ينهى عنه ، ثم نقيم الصلاة وهو أمر إيجابى ، ونتقى الله أى نتقى الأشياء المحرمة وهو أمر سلبى ، وهكذا نجد أن الهدى يتضمن إيماناً عقدياً برب نسلم زمامنا له ؛ لتأتى حركتنا فى الوجود طبقاً لما رسم لنا فى ضوء « افعل » و « لا تفعل » ، وحركتنا فى الوجود إما فعل وإما ترك . والفعل أن نقوم بسيد الأفعال وهو الصلاة ، والترك أن نتقى المحارم ، وهذا كله إنما يصدر من الينبوع العقدى الذى يمثله قوله : ﴿ لنسلم لرب العالمين ﴾ .

والحق سبحانه وتعالى حينما يأمر بفعل أو ينهى عن شىء فهو يعلم أنك صالح للفعل وللترك ، فإذا قال لك : افعل كذا ، فأنت صالح ألا تفعل ، وإذا قال : « لا تفعل كذا » ، فأنت صالح أن تفعل ، ولو كنت لا تصلح لأن تفعل لا يقول لك : افعل ؛ لأنك مخلوق على هيئة تستطيع أن تفعل وتستطيع ألا تفعل ، وهذا هو الاختيار المخلوق فى الإنسان ، أما بقية الكون كله فليس عنده هذا الاختيار .

مثال ذلك : الشمس ، إنها ليست حرّة أن تشرق أو لا تشرق ، الهواء ليس حراً أن

يهب أو لا يهب ، والأرض فى عناصرها ليست حرّة فى أن تكتمها أو لا تكتمها ، لكن الإنسان مميز بقدرته على أن يختار بين البدائل ؛ لذلك لا بد أن يكون صالحاً للأمرين ، والخطأ إنما يأتى من أن تنقل مجال « افعل » فى « لا تفعل » . أو مجال «لا تفعل » فى « افعل » . والمؤمن يأخذ منطقية « افعل » فى مجال « الفعل » ، ومنطقية « لا تفعل » فى مجال الترك .

وحين تنظر إلى الإنسان تجد أن التكليف الإلهى يناسب التكوين البشرى . وأنت تشترك مع الجماد فى أشياء ، ومع النبات فى أشياء ، ومع الحيوان فى أشياء ، وتتفوق على الكل بقدرة الاختيار التى منحك الله إياها .

ولتوضيح هذا الأمر أقول : لنفترض أن واحداً أخذك إلى مكان مرتفع ثم تركك فى الجو عندئذ تسقط على الأرض ، وهكذا تجد أن قانون الجماد ينطبق عليك ، فليس لك إرادة أن تقول : « لا أريد أن أقع » وهكذا نرى الجمادية فيك ، وانظر إلى « النمو » الذى لا تتحكم فيه ولا تقدر أن تقول : «سأنمو اليوم بزيادة فى الطول قدرها نصف المليمتر » بل أنت لا تعرف كيف تنمو ، وأنت لا تعرف كيف ينبض قلبك ، ولا سرّ الحركات الدودية للأمعاء ، ولا حركة المعدة ، أو عمل الكبد ، أو حركة التنفس التى بها تقوم الحياة ، وكل ذلك أمور قهرية ، ومن رحمة الله بنا أنها قهرية ، فلو كانت اختيارية لتحكم فيها غيرك .

إذن من رحمته بنا سبحانه أن جعلنا مقهورين فى هذه المسائل ، ومسخرين فيها ، وبعد ذلك خلق لنا الاختيار فى التكليف ، افعل ، ولا تفعل ، والتكليف من الله سبحانه وتعالى فى الأفعال التى تقع من الإنسان لا فى الأفعال التى تقع على الإنسان ؛ لأن الأفعال التى تقع من الإنسان هى التى فيها اختيار ويبحثها العقل أولاً ، لينفذها الإنسان بعد ذلك . ولذلك لا يكلف ربنا إلا العاقل الناضج ؛ لأنه لا توجد قوة تقهره على غير ما يختار . أما المجنون فليس عليه تكليف ؛ لأنه لم يُدرْ المسألة فى رأسه قبل أن يفعل ، وكذلك من لم ينضج ؛ لأنه لم يصل إلى قوة الفهم الكامل ، وكذلك المقهور على فعل بقوة إنسان أو سلطان أقوى منه .

وهكذا نعلم أن التكليف لا يلزم الإنسان فى تلك الحالات حيث لا يوجد عقل أو يكون العقل غير ناضج ، أو أن يوجد قهر .

ويتابع الحق : ﴿ وهو الذى إليه تحشرون ﴾ ولو أن المسألة ـ مسألة الإيمان ـ مجرد مظهر لا جوهر لما ترتب عليها نتيجة ، ولكن لننتبه إلى أن هناك غاية . وأضرب هذا المثل ـ ولله المثل الأعلى ـ نجد التلميذ مثلاً إن حضر الدرس أو لم يحضر ، استمع إلى المدرس أو لا ، ذاكر أو لم يذاكر ، ألا يظهر كل ذلك فى شهادة نهاية العام ؟ .

إذن فالحساب قائم على كل فعل ؛ لأنك تتمتع أيها الإنسان بخاصية الاختيار ، أى أنك صالح لتفعل أو ألا تفعل ، ولذلك يرشدك الإيمان إلى العمل الصالح ؛ لأن هناك غاية ؛ إنك ستصير إلى من يحاسبك على أنك نقلت « افعل » فى مجال « لا تفعل » ، أو « لا تفعل » فى مجال « افعل » . فإن كنت لا تأخذ أمور الإيمان لصلاحية حياتك فخذها خوفاً من الجزاء والحساب .

ثم يقول الحق من بعد ذلك :

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۖ وَيَوْمَ يَقُولُ كُن فَيَكُونُ ۚ قَوْلُهُ ٱلْحَقُّ ۚ وَلَهُ ٱلْمُلْكُ يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ ۚ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ ﴿٧٣﴾ ﴾

والحق هو الشىء الثابت الذى لا يتغير ، وما دام الحق هو الشىء الثابت الذى لا يتغير فلننظر إلى خلق السماء والأرض ، يقول سبحانه :

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُمْسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ أَن تَزُولَا ﴾

« من الآية ٤١ من سورة فاطر »

وحين ننظر إلى الأفق نجد السماء من غير عمد ، وهذه مسألة عجيبة ، ولذلك يقول سبحانه :

﴿ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ﴾

« من الآية ٢ من سورة الرعد »

وهنا يقول الحق : ﴿ خلق السموات والأرض ﴾ وذلك حتى نعرف أن خلق السموات والأرض ليست عملية سهلة وهو سبحانه القادر ؛ إنّه خلقك أنت بخلق عجيب ، وأعجب منه خلق السموات والأرض ، فهو القائل :

﴿ لَخَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ ﴾

« من الآية ٥٧ من سورة غافر »

وحين ينظر الإنسان فى تكوينه يجد أشياء عجيبة ، ويتحقق من قول الله :

﴿ وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ (٢١) ﴾

« سورة الذاريات »

وحين تتأمل السماء والأرض تجد دقة الخلق ، فكأنه سبحانه قد جعل نفسك مقياساً ، إنك ستعلم أحوالها تباعاً وأنك ستُهْدَى مع الأيام ، إلى سر جديد فى هذه النفس ، هذا السر لم يعرفه الأولون ، لكنك حين تتقدم فى البحث العلمى وآلات السبر وآلات الاختبار تتعرف وتكتشف هذا الجديد .

مثال ذلك ما يسمى بالاستطراق ، وكلنا رأينا الأوانى المستطرقة التى نضع فيها سائلا ينفذ فى أنابيب متعرجة وأخرى مستقيمة ، فيرتفع السائل فيها بمستوى واحد وهو ما نسميه بظاهرة الاستطراق ، وهناك استطراق مائى ، ويوجد أيضاً استطراق حرارى ، ويتمثل الاستطراق الحرارى حين نأتى بالمدفأة فى الشتاء ونجلس فى الغرفة ، ونشعر بالحرارة التى تشع من المدفأة ، وأنت تجد نفسك محتفظاً بدرجة حرارتك العادية وهى سبع وثلاثون درجة . ومن العجيب أنها تتساوى فى البشر جميعا حتى فى القطب الشمالى والقطب الجنوبى !! فلماذا لم تستطرق درجة حرارتك مع

الجو ؟ ولماذا لم يأخذ الجو البارد من حرارتك لتتساوى درجات الحرارة ؟ .

إن ذلك يثبت أن لك ذاتية تجعلك وحدة مستقلة عن الكون الذى تحيا فيه ، وتظل درجة حرارتك عند خط الاستواء ٣٧ درجة ، وفى القطبين ٣٧ درجة ، هذا عجيب ، والأعجب من ذلك أن أجزاء جسمك المختلفة تختلف فيها درجة الحرارة ، فلو أن درجة حرارة العين ٣٧ درجة لانصهرت ؛ لذلك نجد أن درجة حرارة العين تسع درجات فقط ، وهناك الكبد الذى تبلغ درجة حرارته أربعين درجة ، وكل أعضاء جسمك وهى مجموعة فى شكل واحد ومع ذلك لا تستطرق فيها درجة الحرارة . ولذلك قال الحق : ﴿ وفى أنفسكم أفلا تبصرون ﴾ .

ومثال آخر من عملية التنفس ، فحين تدخل ذرة من غبار فى مجرى النفس نجد السعال قد هاجم الإنسان ليطرد هذه الذرة وتجد أنك قد سعلت قسراً إلى أن تطرد هذه الذرة ، فهل أنت قد سعلت بقرار منك ؟ لا ، بل هو عمل لا إرادى خاضع لنظام دقيق لا يمكن أن يصممه إلا خالق له مطلق الحكمة ، وعلى سبيل المثال نجد الكبد محوطا بتغليفات متتابعة ليحتفظ بحرارته التى تبلغ أربعين درجة ؛ لأنه لا يؤدى مهمته إلا عند هذه الدرجة . وكذلك نجد أنّ الأذن هى أول عضو يشعر بالبرودة ؛ لأن درجة حرارتها قليلة ، وهكذا أراد الصانع الأعلى . كما جاء فى قوله تعالى :

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ﴾

« من الآية ٧٣ سورة الأنعام »

لقد خلق الحق السموات والأرض بقوانين ثابتة لا تتغير إلا بمشيئته ، فهو القائل :

﴿ لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ ۚ وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٤٠﴾ ﴾

« سورة يس »

فيامَنْ تريد النظام دليلاً على حكمة الخالق الموجد خذها فى النظام الأعلى . ويا من تريد الشذوذ دليلاً على سيطرة الحق فوق الميكانيكية ، خذها فى الأفراد ؛ لأنه

لو حصل شذوذ فى الكون الأعلى لفسدت السموات والأرض ، لكن عندما يوجد أعمى واحد من ألف إنسان ، فلا يحدث خلل فى الكون ، ولذلك نجد الشذوذ إنما يأتى فيما فيه عوض ، والنظام يأتى فيما فى تركه فساد . كما يقول سبحانه :

﴿ وَيَوْمَ يَقُولُ كُن فَيَكُونُ قَوْلُهُ الْحَقُّ ﴾

(من الآية ٧٣ سورة الأنعام)

وبذلك نرى الإيجاد الأول بالحق ، وأيضاً حين يهدم سبحانه السماء والأرض وينهى الدنيا ويزيلها ، فتمور السماء، والكواكب تنتثر وتتساقط ؛ فإن ذلك يحدث أيضاً بالحق ، فليس الخلق والإيجاد وحده دليلاً على عظمة الخالق بل إنهاء الخلق وإفناؤه وإزالته أيضاً دليل عظمة ؛ لأنه سبحانه قال فى البدء : « كن » فكان الكون ، وفى النهاية يقول : « كن » فيكون إنهاء الخلق ليعطى للمحسن جزاء إحسانه، ويحاسب المسىء ؛ لأن المحسن قد يشقى بإحسانه طول عمره ، ولا بد له من ثواب ، والمسىء لن يأخذ راحته بل يأخذ عقاباً . فمن الخير والعظمة أن تنتهى الحياة ليأتى يوم الحساب لينال كلٌّ جزاءه .

إذن فخلق السموات والأرض حق ويوم يقول كن فيكون قوله الحق ، فالحق فى الإيجاد والحق فى الإعدام، إنّه حاصل فى بدء الخلق ، وفى نهايته .

﴿ وَلَهُ الْمُلْكُ يَوْمَ يُنفَخُ فِى الصُّورِ عَـٰلِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَـٰدَةِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ ﴾

(من الآية ٧٣ سورة الأنعام)

وهل كان الملك يوماً لغير الله ؟

فى هذا المقام علينا أن نتنبه إلى أن فيه ملْكاً ، ويقال لصاحبه مالك ، وفيه مُلك ويقال لصاحبه ملك . والملك ما تملكه ؛ فقد تملك جلبابك الذى ترتديه . أما المُلْك فهو أن تملك من يَمْلك ، فهذا اسمه مُلْك ، وربنا سبحانه وتعالى فى دنيا الأسباب جعل لكل واحد منا ملكاً ، وجعل لبعض علينا مُلكاً فبقوا ملوكاً ، لكن فى الآخرة لا يوجد شىء من هذا ، لذلك يقول الحق :

﴿ لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ ﴾

« من الآية ١٦ من سورة غافر »

وفى الدنيا قد تملك مثلاً أن توظفنى عندك وتعطينى أجراً ، وقد تملك أنك تطبخ لى طعامى أو تعطينى طعاماً ، أو تملك أنك تخيط جلبابى ، لكن فى الآخرة لا يملك أحد لأحد سبباً ؛ لأننا نحيا فى الدنيا بالأسباب التى منحنا الله إياها ، وفى الآخرة بالمسبب وحده دون أسباب .

﴿ وله الملك يوم ينفخ فى الصور ﴾ ولو سلسلتها قبل أن ينفخ فى الصور تجد الملك أيضاً لله ولكن بوسائط ؛ لأن الحق سبحانه وتعالى جعل الأرض أرض معاش ، وهناك الآخرة إنها أرض معاد ، لذلك قال :

﴿ يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ ﴾

« من الآية ٤٨ من سورة إبراهيم »

والأرض التى نحيا عليها مخلوقة لنستعمرها ، ونحرث جزءاً منها لنزرعه ، ونبنى بيوتاً على جزء آخر ، وهكذا تكون المسألة كلها أسبابا يتوافق بعضها مع بعض ؛ فأنا لا أستطيع أن أحرث إلا بمحراث ، وكذلك من يرغب فى استخراج عنصر الحديد من الأرض يقيم منجماً ، ومن يرغب فى استخراج البترول يأتى بالآلات التى تستكشف أماكنه ، ولا أحد يستطيع أن يملك كل أسباب حياته بل توجد فى يده زاوية واحدة ، وباقى الزوايا فى أيدى بقية الخلق .

وحين تسلسل الأسباب التى نحيا بها سنرجع للحق سبحانه وتعالى ، فحين تنتهى يد المخلوق وأسبابه تضيق به فإن يد الخالق جلت قدرته مبسوطة إليه دائما ، وإياك أن تغرك الأسباب ولكن سلسل الأسباب إلى أن تنتهى إلى الله .

ولو سلسلت كل ظاهرة من ظواهر الكون لوصلت إلى منطق الحق ؛ فالطفل الصغير يرقب ظاهرة فى البيت ، هى زر فى الحائط ، عندما يضغطون عليه بأصبع واحدة يضىء المصباح ، فيقلدهم ، وحين يراه أخوه الذى يدرس الإعدادية يقول له :

لا تصدق أن الضوء يأتى من هذا الزر بل هناك سلك قادم من خارج المنزل يربط بين صندوق الكهرباء والمنازل ، وحين يسمعهما من هو أعلى منهما علماً يشرح لهما أن الكهرباء الموجودة داخل هذا الصندوق قادمة من المولد الكبير الذى فى موقع ما من المدينة ، وقد صنعته المعامل والعقول حتى ينتهى الشرح فيصل إلى فكرة التيار المكهرب المستخلص من شلالات الأنهار مثلا .

إذن فكل ظاهرة تراها أمامك وراءها حلقات غيبية لو سلسلتها لوصلت إلى الحق سبحانه وتعالى ، وسبحانه قد احترم دنيانا وجعلنا نفهم أن بعضنا له مُلك ، ولكن نقول لكل مَلِك : إن هذا المُلك ليس بذاتك ؛ لأنه لو كان بذاتك لما سلبك أحد هذا المُلك أبداً . وسبحانه القائل :

﴿ قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ ﴾

« من الآية ٢٦ من سورة آل عمران »

إذن فليس هناك من له المُلك بذاته إلا الله .

والحق يقول هنا :

﴿ وَلَهُ ٱلْمُلْكُ يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ ۚ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ ﴾

« من الآية ٧٣ من سورة الأنعام »

ينفخ فى الصور تفيد الإيذان بمقدم أمر ما ، فبعد النفخة الأولى يموت من كان حيًّا ، وبعد النفخة الثانية يصحو الموتى ويقومون .

وكلمة ﴿ عالم الغيب والشهادة ﴾ تشرح لنا أنه سبحانه ما دام عالم الغيب فمن باب أولى أنه يعلم المشهود . وهذا تعبير دقيق ، وإنّه يعلم الغيب ويعلم الشهادة وعلمه يترتب عليه جزاء لا عن تحكم ، ولكن عن حكمة .

ويذيل الحق الآية بقوله سبحانه : ﴿ وهو الحكيم الخبير ﴾ والحكيم هو الذى يضع كل أمر فى مكانه ، والخبير هو من يعلم كل شىء بإحاطة تامة ، وسبحانه ليس بحاجة إلى أن يظلم أحداً ؛ لأن من يظلم إنما يريد أن ينتفع بالشىء الموجود لدى المظلوم ،

وربنا لا ينتفع بحاجة من هذه ، بل ينفعنا جميعاً ، ولذلك إذا نظرت إلى الإيمان تجده كله عزّة ، وأنت تجد الناس تكره كلمة « عبودية » ، وتقوم حروب من أجل تحرير البشر من عبودية البشر ، أما عبودية بشر للحق فأمرها مختلف ؛ لأن العبودية للبشر ، نجد فيها أن السيد يأخذ خير عبده ، ولكن العبودية لله نجد فيها أن العبد يأخذ خير سيده ، وهكذا تكون العبودية لله عزّة ، أما العبودية للبشر فهي ذلة .

ولذلك نجد الله سبحانه وتعالى قد امتن على نبيه بصفة العبودية فقال :

﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ﴾

« من الآية ١ من سورة الإسراء »

فقد أخلص صلى الله عليه وسلم العبودية لله ، فأخذ من فيوضات الحق بما يناسب عبوديته .

والحق سبحانه يوضح لكل عبد : نم ملء جفنيك ؛ فأنا لا تأخذني سنة ولا نوم ، وأنا قيوم ، وإن احتجت مني إلى شيء ما فادعني وسأمد لك يد العون بما يناسبك ، فهل في هذه العبودية لله شيء غير العزّة ؟ !

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ ءَازَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا ءَالِهَةً إِنِّىٓ أَرَىٰكَ وَقَوْمَكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٧٤﴾﴾

والحق سبحانه وتعالى يعطي له صلى الله عليه وسلم ما يسليه ويصبّره على مشقات الدعوة ؛ لأن الدعوة للإسلام في أوله أرهقت رسول الله وأصحاب رسول الله ، فيريد سبحانه أن يعطيهم مُثُلاً حدثت للرسل ، وهنا يأتي الحق بخبر عن أبي الأنبياء سيدنا إبراهيم :